ليلة الوداع

طال البعاد ·· وانقطعت رسائلها الرباط ·· وتأججت نيران الشوق ·· نضب الزاد ·· والزاد نظرة وداع ·· قلبى يتململ ·· يدب ·· يدق من الأعماق ·· حتى الفجر سهرت عيناى ·· وسهرت أفكارى وظنونى ·· على وجه السرعة كيف أسافر ·· بل كيف أطير ·· كيف ؟ !

فى لهفة وقلق انتظرت القطار ·· أخيرا جاء ·· انمحت من نفسى اللهفة ·· والقلق ما زال ·· ركبت ·· مرت لحظـــة ·· وأخرى ·· ولحظات ·· ما زال القطار واقفا ! ·· قمت الى الباب ·· على الرصيف ألقيت نظرة ·· عدت الى مقعدى ·· وقفت ثانية ·· ذهبت الى الباب ·· تطلعت الى لا شىء ·· علا صفير القطار ·· يعلن بدء القيام ويعلن فرحتى ·· كأنى أسمع زغرودة أمى بعد غياب ·· زغرودة أمى حادة ·· شهيرة ·· لا أنسى حين ودعتنى ·· ولا أنسى ابتسامتها ·· كانت من بين دموعها ·· تعبيران متضادان

يزحمان صدرها ·· ويطفوان على صـــفحة وجهها فى ابتسامات وعبـرات ·· كانت مرتى الأولى لأفارق أسرتى ·· وأفارقها ·· تحرك القطار دارت عجلة الزمن ·· انزاح الجمود ·· العجلات كأنما تدندن ·· ترسل ايقاعا عذبا ·· من النافذة شاشة القطار ·· تراءى بساط أخضر ·· تلاه بساط أصفر ·· الأشجار تعدو ·· تتسابق ·· تلهو وترقص ·· السـماء مشـبعة بالحمرة ·· الطيور فى الفضاء سابحة هائمة ·· كل الدنيا فرحة بقدومى ·

جاء الليل الأسود ·· فى البساط الأسود أضواء تتأرجح من بعيد ·· تذكرنى بماض جميل ·· وأضواء قريبة تتألق تشير الى مستقبل أكثر جمالا ·· الحياة ترقص معى ·· فى الليل أيضا يداعب النوم الجفون ·· وفى الليل نحلم ·· أرى صورتها بيضاء كأنها مـلاك ·· تبتسم ·· تنـاديني ·· ما أحلى ابتسـامتها ·· وما أرق صـــوتها ! ·· لكأنى أراها حائرة ·· تحـيرها الفرحة لعودتى ! ·· فتحت عينى ·· من النـافذة نظرت ·· فى النافذة تناجينى ·· تهرع الى ·· تعانقنى فى شوق ·· على صدرى تنام ·· تضحك فيضيء الليل الحالك ·· تبكى فأحس الدنيا تزلزل ·· جميلة حين تضحك ·· رائعة حين تدمع ·· لا أنسى يوم عرسنا ·· عانقت الجمال حين عانقتها ·· تنسمت عطرا ساحرا ·· قطرت عيناى دموع الفرح ·· كانت السعادة ترفرف من حولى ·· وكانت الدنيا بين يدى ·· **انسابت من فمها الكلمات :**

ـ ليتنى قطعة حب فأخبو فى قلبك ··

ثم أضافت فى دلال :

ـ و ··· وكيف ترانى ؟

ما أجمـــل ضحكتها ·· ما زلت أســمع رنينهـــا ·· **نظرت فى عينيها العميقتين ·· وعدت أقول لها :**

ـ سأراك بقلبى .. فقلبى يعـــرف كيف يرى .. لأنه أحبـك ..

أطال الله عمرك أيها السائق .. القطار ينهب الأرض نهبا .. لعله سعيد مثلى .. لو تسرع أكثر ! عدت الى الشاشة .. فوق البساط الأسود رأيتها تنظر من نافذة عشنا .. رأتنى .. ها هى تطير الى .. تعانقنى .. دموعها تلسع خدى .. نمت على صدرها .. طال النوم .. تراءت أحداث سعيدة تفوق الأحلام .

سمعت ضجيجا أزعجنى .. انتزعنى من سعادتى .. فتحت عينى برغمى .. كدت أثور على هؤلاء العابثين الماجنين .. لكنى رأيت النهار .. فالدنيا بيضاء زاهية .. من النافذة رأيت القاهرة راسخة شامخة كما ودعتها .. وقف قطار العـــودة الحبيب .. اختطفت حقيبتى .. اندفعت الى الرصيف .. هرولت .. الحقيبة ثقيلة .. لكنى ألوحها ! ..

من بوابة المحطة العتيقة رأيت رمسيس العظيم .. رمز وداعى وعودتى .. ليتنى أغطس فى مائه فأخرج بريئا من وعثاء السفر .. لكن .. لكنها تحبنى .. تعشقنى بما خلفته آثار السفر .. استأجرت احدى العربات .. رجوت السائق أن يطير .. ابتسمت **فى سخرية ولسان حالى يقول :**

ـ مهما أسرعت فلن .. لن تسبق دقات قلبى !

فى العربة أيضا .. رأيتها بجانبى تلبس تاج العرس .. مطأطئة الرأس فى حياء وخفر .. لمست ذقنها وقلب ينبض .. رفعت وجهها .. كم أضاءت ابتسامتها أعماقى .. كانت ليلة عرس أنيقة بهيجة ...

وصلت الى قريتى ·· والدليل نخيلها الباسقة ·· لم أصدق ·· أهذه قريتنا ·· جريت وجريت وجريت ·· حقيبتى ما زلت ألوحها ·· ما زلت أجرى ·· تطلعت الى نافذة عشنا ·· انها مغلقة ·· لعلها نائمة ·· ولا ريب أنها ترانى فى حلمها ·· وحتمـــ ستصحو لتلقانى ·· واصلت السباق حتى باب المنزل ·· طرقت طرقات سريعة ·· سمعت وقع أقدام أمى أيضا تعدو ·· فتحت الباب ·· اندفعت الى أحضانها ·· ضمتنى ·· ضغطت كتفى بحنان ·· بللت دموعها وجهى ·· رأيت اخوتى ·· على جباههم قرأت ملامح الحب والشوق واللهفة ·· وفى عيونهم لمحت الدموع ·· وهذه دمعة من عين أمى لسعنى لهيبها ·· تفرست فى وجهها ·· كانت مسبلة الجفون ·· وعلى خديها تنحدر الدمـــوع ·· وعلى جبينها حبات عرق ·· نحيت الى اخوتى عانقتهم جميعا ·· الا هى ·· فتشت حولهم ·· بحثت فيهم ·· ليست معهم ·· لم تأت لتلقانى ·· عقدت الرهبة لسانى ·· بودى أن أسأل أو أستغيث ·· أين عروسى ؟ ·· أين زوجتى ؟ ·· العيون من حولى تحكى شيئا ·· الصمت خير معبر ·· لعب لسانى دون كلام ·· فماذا يقول ؟! ·· ماذا أقول ؟! ·· أختى الطفلة أيضا تدمع ·· كل يدمع ·· كأنى فى بحر من الدموع ·· تخنقنى طياته ·· وأضيع بين أمواجه ··

أمام السلم وقفت ·· نظرت اليهم كأنى أطلب العون ·· بعينى جبت كل الدرجات ·· ليست على احداها ·· خطوت الدرجة الأولى ·· بودى لو أصعد مسرعا ·· وبودى لو أدع المنزل وأعدو فى الطرقات ·· أو ·· أو أعود الى مكان الرحيل ·· صعدت ·· وقفت أمام باب العش ·· فتحت الباب ·· دق قلبى ·· الدقات عميقة لها صدى ·· رهيبة ·· دلفت هذه الحجرة ·· وتلك ·· وكل الحجرات ·· علا صوتى يناديها ويكرر النداء ·· الصوت

يختفى ·· ينزوى بين قطع الأثاث ·· يتخبط فى الجدران ليعود الى مسمعى ·· جلست على الفراش ·· نظرت الى النـــافذة ·· أراها تسدل الستارة ·· وأنصت اليها :

ـ اننا بعيدون عن العيون ··

على الوسادة ورقة مطوية ·· لابد انها رسالتها ·· تناولتها بيد مرتعشة ·· فتحتها لاهثا ·· قرأت الحقيقة المفجعة ·· لقد مرضت ·· ولن تحتمل ·· كانت رقيقة كالزهرة ·· لم يمهلها ·· لم يرحمها المرض القاسى أذبل الوردة اليانعة ·· وسرعان ما جفت وتقطعت ·· وتكسرت ·· وانتشرت ·· وانزوت فى العالم الآخر ·· علنى أحتمل الصبر لحين ألقاها ·· ألقيت نظـــرة على مخدعنا ·· لم يضمنا سوى ليلة واحدة ·· وكانت ليلة الوداع ·· وا لهفاه ! ··وا حبيبتاه ·· !!

خرجت من الحجرة ·· أغلقت بابها ·· أغلقت باب القبر ·· صورتها على الباب وعلى ثغرها ابتسامة ملاك ·· نزلت على درجات السلم ·· أعد كل ذكرى ·· أتفحص موضع قدميها ·· لكنى لم أر شيئا فقد ملأت الدموع عينى ·· مسحت الدموع ·· فتحت عينى ·· لكنى أيضا ·· لم أر ضوء النهار ·· من بين البكاء والعويل ·· تحسست رأس أختى الصغيرة ·· مسحت دموعها ·· وهمست فى أذنها أن تأخذ بيدى وتسحبنى حيث المقابر ···